الاستشراق الفرنسي وتوظيفه الاثنوغرافي في احتلال الجزائر

أ.مسعود بودربالة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة

ملخص البحث:

وضع المشروع الاستعماري الحديث منظومة متكاملة ومترابطة من الوسائل، التي لابد من تسخيرها، ليتمكن من تحقيق أهدافه، وقد أولى اهتماما خاصا بالوضع الاجتمعاعي، الذي كانت تعاني منه تلك الدول المستضعفة، وخاصة التي كانت تحت سلطان العثمانيين، بعد أن بدأت إمبراطوريتهم تتهاوى، فاطلقوا جيوشهم من الباحثين في شتى الميادين، وزودوهم بكل ما يمكن توظيفه في تلك الشعوب، ليهيئوا الساحة للمرحلة الأخيرة (الغزو العسكري)، بعد أن شرّحوا الوضع في تلك البلدان، وعرفوا التركيبة الاجتماعية، والسياسية، والعرقية، والمنظومة الدينية، والقيمية، وقد كان الاهتمام بارزا للمجال الاثنوغرافي، وابعاده في تحديد طبيعة الشعوب،،و تركيباتها، فوظفت لتشريح تلك الدراسات الاستشراقية، ولعل الأمر بارز في ما سخرته فرنسا من جيوش المفكرين، وما وظفته من دراساتهم لاحتلال الجزائر.

French orientalism :

andemploying them ethnographic research in the occupation of AlgeriaThe translation of the article summary

The project colonial status of an integrated system and are interdependent in the means that must be harnessed in order to achieve its objectives, and to pay particular attention to the social situation which had suffered by those States vulnerable and for which was under the authority of the Ottomans after it began their empire crumbling and opened their armies of researchers in various fields and provided them with all what can be employed in those peoples to create the arena of the last phase (the military invasion), after that explained the situation in those countries and knew the social structure, and the political and ethnic and religious system and value systems, and had been a prominent attention of the ethnographic research and its dimensions in determining the nature of the peoples and installations, employed for autopsy, Oriental Studies, and perhaps it a prominent Salafi trend to France from the armies of intellectuals and The implementation of the objectives set out by the from their occupation of Algeria.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

اهتم الباحثون الفرنسيون بدراسة الشرق والتخصص في ثقافته، وتراثه، لكن دراساتهم لم تتوقف عند الشرق الجغرافي الطبيعي، وإنما تعدت إلى "الشرق الهوية"، وهو محور ما استهدفه علم الاستشراق[1]، ومصدر العناية والاهتمام، فهدفه هو معرفة "الشرق الهوية والتاريخ"، المتمثل في الإسلام والمسلمين تحديدا، ودراسة التركيبة العرقية، وأثرها في تماسك أو زعزعة النظام الاجتماعي و إضعافه، كما كان هذا الاستشراق يمثل الخلفية التاريخية والقاعدة الثقافية في الذاكرة الجماعية الفرنسية، وعليها بني الاستشراق الفرنسي، ومنها انطلق، فكان يحمل روح الصراع الديني، والعسكري، والعدائية التاريخية والزعامة الصليبية.[2]

يتبين لنا هذا جليا، من خلال المفهوم الاصطلاحي للإستشراق "Orientalisme"والذي يعني ذلك التيار الفكري المتوجه لدراسة الشرق الإسلامي، شاملا حضارتهن وأديانه، وآدابه، ولغاته، وثقافته[3].

المتتبع لأبعاد الاستشراق التي وضعها ستيفان قزال " Stéphane Gsell"، يجد أن المدرسة الفرنسية ذات أهداف استعمارية بالدرجة الأولى، وبالحديث عن الجزائر نجد أنها اعتمدت على إيديولوجية، تتمثل في دراسة الجزائر دراسة متعددة الأطراف، مع إعطاء أراء ميدانية ثم تنتقل إلى تطبيقها على المجتمع الجزائري، لتحقيق الاستعمار من خلال تفكيك المجتمع[4].

وقد ركز على أمور أساسية منها :

. محاولة إحياء الموروث الروماني مكان التراث العربي[5]

ـ حركة النهضة والتنوير الأوروبية وأثرها في ظهور فكرة تمدين بقية الشعوب[6]

ولّد هذا شعورا لدى فرنسا بالتفوق أمام الشعب الجزائري، إلى جانب ذلك أن هذا التطور جعلها تبحث عن أسواق خارجية لمنافسة خصومها،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فكانت معرفتها لتراث الشرق بمثابة دليل للحكومة الاستعمارية، لفرض سيطرتها، وتعديل خططها السياسية، لتكون مطابقة لما تقتضيه الأوضاع.

الاستشراق الفرنسي نحو الجزائر، يحمل في ظاهره أهداف علمية معلنة، لكن في طياته يحمل أهدافا خفية تعمل على فهم الشعوب، وتوطين الاستعمار،وفي ذلك إتجه إلى دراسة ما جاء من رحلات وبعثات إلى شمال إفريقيا، وخاصة منها إلى الجزائر في القرن 18م،التي أصبحت فيما بعد مادة أولية في الدراسات الاستشراقية.

عندما يذكر الاستعمار الفرنسي للجزائر،يتبادر إلى الاذهان،مساهمة أصناف المستشرقين بمختلف صفاتهم؛ العسكريين، ورجال الدين،قساوسة ورهبان وجواسيس...،إلى غير ذلك من الذين رافقوا الحملة الفرنسية إلى الجزائر، الكل طبق سياسته من جانبه، لخدمة فرنسا في تحقيق مشروعها الاستعماري.

الملاحظ أن جل دراسات المستشرقين في تلك الفترة انكبت حول محاور ثلاثة، كانت ومازالت تحتل مكانة مهمة في دراساتهم، ويتعلق الأمر بالعِرق، والدين، واللغة، ومعرفتها تكفي لمعرفة الواقع الإثني للمجتمع، والأطياف المشكلة له، ويمكن ومن خلال توجيه هذه المقومات، توجيه المجتمع للوجهة التي يريدها المحتل .

استخدم المستشرقون من أجل تحقيق ذلك، وسائل مهمة تمكنهم من انجاز بحوثهم الاجتماعية، ويؤدوا دورهم الكبير في التهيئة والتمهيد لاستعمار العالم الإسلامي، وليس الجزائر وحدها.[7] ومن أبرزها:

. نشر الآثار القديمة.

ـ تكوين الجمعيات المختصة و الصحف و الدوريات التي تحفظ الاكتشافات التاريخية و تعرف بها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ إنشاءاللجان العلمية ومنح الرخص للأفراد للقيام بعمليات البحث والجمع.[8]

ففي مجال نشر الآثار القديمة عن الجزائر قد تم تسخير مجموعة مهمة من المستشرقين لإجراء أبحاث ودراسات تحليلية لهذا التراث وترجمته إلى اللغة الفرنسية والقيام بنشره.[9] نشر الفرنسيون سنة 1830 كتب الرحلات والانطباعات التي كتبها الأوروبيون عن الجزائر، خلال العهد العثماني، مثل دان ديغودي هايدوا Diego de haedo وفانتوري دي برادي V. De paradis[10] عادوا إلى كتب المؤرخين والرحالة العرب كابن خلدون الذي اعتبروه من أكبر المؤرخين فحققوا الجزء الخاص ببلاد البربر من كتاب العبر ونشروه في جزءين ثم تمت ترجمته إلى اللغة ألفرنسية كما ترجموا كتابات البكري والعياشي ... وقاموا بنشر مراسلات دايات الجزائر مع فرنسا.[11]

صُبغت معظم الدراسات الاستشراقية في الجزائر بصبغة واحدة، وجعلتها تدور بكاملها في فلك التعرف على اشكال التنظيم الاجتماعي للمجتمع الجزائري، وكذا علاقة الاهالي بالدين الإسلامي، ومدى تأثير المؤسسات الدينية المختلفة من طرق دينية وزوايا وكتاتيب في نمط الحياة وتوجيه المجتمع. الغاية منها السعى إلى تدمير الخصوصيات المختلفة للمجتمع الجزائري، وإعادة تشكيله على أسس جديدة، تجعله مجتمعا خاضعا للسيطرة الفرنسية،[12] معتمدين في ذلك على دراسة تاريخ الجزائر، بهدف مد السلطة الاستعمارية بالطرق المساعدة على إرساء الاحتلال، وكذا تبرير الوجود الفرنسي في الجزائر، وتحضير العنصر الجزائري لتقبله، وإقناع الجزائريين بأنهم عاجزون عن تسيير شؤونهم المختلفة بأنفسهم، وبأنهم غير قادرين على صنع حضارة إلا بوجود الاجنبي معهم.[13]

اشرف على هذه العملية، أو الحركة الفرنسية الفكرية، مجموعة من المستشرقين، فكان منهم الموضوعي ومنهم المادح،ومنهم المنتقد المشوه لحقيقة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجزائر،والإسلاموالمسلمين.[14] البعض رأى في الاستشراق دسًا على الشرق والاسلام، خاصة ومؤامرة عليه لتشويهه وتلطيخ تاريخه، والبعض نظر إليه على أنه في خدمة المصالح الاستعمارية على وجه الخصوص.[15]

حاربت السلطات الفرنسية اللغة العربية بمختلف الوسائل، ففرضت لغتها الفرنسية، ووظفت اللغة العربية لمصالحها الاستعمارية.وجندت لذلك فرقة من المترجمين للقيام بهذه العملية، وأطلق عليهم "فرقة المترجمين العسكريين؛ منهم القسيس، والمدرس، التاجر، والعسكري، وقد كان بعض هؤلاء من مواليد مصر وسوريا، وبعضهم من تلاميذ سيلفستر دي ساسي De Sacy[16]،عميد مدرسة اللغات الشرقية بباريس، ومن المترجمين الشرقيين، نذكر زكار zakar، الذي تعاون مع دي ساسي على ترجمة البيان الفرنسي للجزائريين قبيل نزول الحملة، إضافة إلى جوني فرعون Pharaon Joanny.[17]

احتاج النظام الاستعماري بعد الحملة، إلى معرفة البلاد وأهلها، وكانت اللغة العربية الوسيلة الضرورية لهذه المعرفة، حيث يقول أحد المستشرقين الفرنسيين : " لقد كان على السادة الجدد (يعني الفرنسيين) أن يستعملوا اللغة العربية في الإدارة، وفهم السكان، ولا يمكن مطالبة الجزائريين بتعلم لغة الغزاة فورًا".[18]

اللغة العربية في الجزائر كانت لغة الحديث و التواصل، منذ قرون ودراستها تقدم للفرنسيين فوائد جمة، بحيث يتعرف الفرنسيون على حاجة الجزائريين، ورغباتهم، وألامهم، وجعلهم يعتقدون أن الفرنسيين هم حماة لمصالحهم، وممدنين لبلادهم، وليسو غزاة تساندهم الاسلحة.[19]

نماذج من المستشرقين المترجمين:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن "بيانشي Bianchi" الذي كان أمينا عاما ومترجما لملك فرنسا، والذي عمل لمدة سنتين مع الكونت برو ترنو يار، أكد على أهمية و ضرورة المترجمين في الحرب، كما يرى أنه من الواجب يكونوا على علاقات مع الأهالي، لذالك عملت الحكومة الفرنسية على اختيار مترجمين أذكياء وموثوق فيهم، لمساعدتها في الحملة. فكان الحاكم العام الفرنسي آنذاك هو الذي يعين المترجمين في الجزائر ومن هؤلاء المترجمين نذكر:[20]

أ- جون شارل زكار Jean Charles Zakar[21] استدعته الحكومة الفرنسية لكتابة تقاريرها الرسمية الموجهة للأهالي الجزائريين، لإتقانه اللغة العربية، لدرجة أن الجنرال ديبورمون Deborment يثق فيه كثيرا، ونتيجة هذه الثقة كان يترجم له تلك الرسائل التي بعثها إلى الباشا حسين إلى اللغة العربية، سمي بذلك المترجم من الرتبة الأولى، في 03 افريل 1833، ثم مترجم رئيسي، في 17 أفريل 1839، ثم أصبح مترجم مساعد في 1848.[22]

شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر، وارتبط بالحكام العاميين منذ عهد الجنرال ديبورمون، إلى عهد المارشال بيجو، قائما بدوره الأساسي وهو الترجمة، وهو أول من اشتهر باللغة العربية، كما تولى مخاطبة الأمير عبد القادر ثلاث مرات، لأنه كان الوسيط بينه وبين الإدارة الفرنسية، رغم خدمته للفرنسيين إلا إنه مات فقيرا[23].

ب . رمبار "Raimbert" عامل قديم في فرنسا، عُين مترجما في عهد الجنرال ديبورمون، وكلف بمهمة رسمية في تونس، وبعد الحملة على الجزائر رافق الجنرال ديبورمون من 1830.أسندت إليه أعمال مهمة في الفترة من 1830 إلى 1836، بسبب علاقاته القديمة مع الأهالي، وأعطى للحكومة معلومات كثيرة ومهمة وقيمة عن إقليم قسنطينة، وأنهى أعماله كمترجم أمام جنرالات.[24]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ج ـــ دانينوس "Abraham Daninos" ولد في الجزائر عام 1797،من أصل فرنسي، عُين مترجما وعمره14سنة،اسندت إليه الحكومة الكثير من الترجمات، وكتب الكثير من الكتب باللغتين العربية والفرنسية، كما كان يتقن الألفاظ الشعبية التي أعطيت للقادة، وهذا ساعدهم في احتلال الجزائر سنة 1830،حيث أعطى لهم الكثير من المعلومات عن مدينة الجزائر.

عُين مساعداً مترجما سنة 1830، ومساعدا للسيد Torpin، ثم عُين بعد ذلك قائدا للطيران وهذا نتيجة لمعارفه العميقة في الجزائر، في 1833 عُين في لجنة التحقيق بصفة مترجم بين الجزائر و فرنسا لمدة 4 سنوات، بعد ذلك وبأمر من وزير الدفاع، أُرسل إلى الأمير عبد القادر، توفي في 7 فيفري 1887 كمترجم عادل.[25]

د - هنري ريمزا " Henry Remusat" [26] وصل إلى ميناء سيدي فرج مع الجيش الفرنسي، وعمل مع المارشال كلوزيل Clausel،والجنرال بيرتزن Berthesene، ومع الدوق روفيغو Dug Ruvigo،قدم أعمال مهمة خاصة عندما أُرسل إلى المدية، وأعطى معلومات قيمة للإدارة الفرنسية عنها.[27]وفي1838مُدح من قبل المارشال فالي Valée واقترح عليه مواصلة عمله،وفي 1839أسندت إليه إدارة الشؤون العربية في إقليم الجزائر، ومكافئة له على أعماله القيمة وخدماته الجليلة في الوظائف المسندة إليه، عين مترجم من الدرجة 2 في1افريل 1840، وعُين مترجما من الدرجة الأولى في 1أوت 1843، وقدم خدمات مهمة إلى غاية 1863أحيل إلى التقاعد، وهو مترجم للتاريخ الإفريقي والقيرواني، قدم الكثير من الترجمات لملفات عربية، وقد خدمت كثيراً الجنرال دوماس Dumas،نشر الكثير من الكتب عن الجزائر، توفي فيها 12 افريل 1874.[28]

هـ . ميلي فريديرك " Muller Frédérik" يعد مترجم من الدرجة 2 سنة 1830 ومن الدرجة الأولى في الجزائر في نفس السنة[29]، ثم أصبح مترجما رئيسيا في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

17 افريل 1839، رافق وخدم الحكومة العامة دون توقف إلى غاية وفاته 29 جوان 1840 في باريس، وهو الفرنسي الأول الذي دخل إلى الجزائر من بوابة باب الوادي، في مهمة كلفه بها **الجنرال ديبورمون** لأغا العرب، قبل أن يدخل الجيش إلى المدينة الجزائر.شارك في كل البعثات منذ الوهلة الأولى، وخاصة تلك التي كُلف بها في قسنطينة 1837.[30]

المستشروقون والدين الاسلامي

حاول المستشرقون أن يحققوا أهدافهم بكل الوسائل، ألفوا الكتب، وألقوا المحاضرات والدروس،بشروا بالمسيحية بين المسلمين، أنشأوا الجمعيات، عقدوا المؤتمرات، اصدروا الصحف،وسلكوا كل المسالك تحقيقًا لأهدافهم.[31] رغبة السلطات الفرنسية في القضاء على الإسلام في الجزائر، دفعت بالعديد من المستشرقين إلى شن حملة واسعة لتشويه الإسلام، ووصفه بشتى الأوصاف، وتفضيل المسيحية عليه، من خلال تحسين صورتها بين أفراد المجتمع الجزائري.[32]

أوجدت الحركة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر مصطلحا جديدا " الإسلام الجزائري "، تعني به الإسلام كما يمارسه الجزائريون، الذين يتهمونهم بعدم اعتناقه عن وعي، وعدم ممارسته عن عقيدة، وإنما هو عندهم نوع من التقاليد الموروثة، والفلكلور الذي يظهر في المناسبات، وقد اصدروا مؤلفات كثيرة في هذا الشأن، منها كتاب دوتي (الإسلام الجزائري)، وكتاب (قديسو الإسلام الجزائري) لترومليي.[33]

فدراسة المستشرقين للإسلام قامت من أول الأمر بوحي من الكنيسة الكاثوليكية،خاصة للانتقاص من تعاليم الإسلام، وإهدار قيم تعاليمه حرصا على مذهب الكثلكة، من جانب، وتعويضا عن الهزائم الصليبية من جانب آخر، ولقد عمل الاستشراق على محاربة الإسلام والقضاء على الحركات الإسلامية باعتباره أداة من أدوات الاستعمار يؤدي الدور المنوط به. تعددت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أدوارهم لتحقيق أهداف الاستعمار، بين العمل للتشكيك في شريعة الإسلام وعقيدته، و فكره، وغرس الفكر الغربي المسيحي كبديل في النفوس.[34]

اتجه المستشرقون لمعاونة الاستعمار إلى مجال التربية، محاولين غرس مبادئ التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين في حياتهم، وتفكيرهم، وحتى تمحق في نفوسهم موازين القيم الإسلامية، ولا يعرف العقل المنطق حدا لما يقوم به المستشرقون من تحريف التاريخ الإسلامي وتشويه لمبادئ هذا الدين، وثقافته، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله، كما يذلوا كل ممكن، وبكل الوسائل لينقصوا من الدور الذي لعبه الإسلام في تاريخ الثقافة الإنسانية.[35]

اتسمت نظرة المستشرق الفرنسي الكسي دي توكفيل "AlexisdeToqueville"[36] بنوع من الموضوعية، لما قيم الوجود الفرنسي في الجزائر، أثناء تدخله في البرلمان الفرنسي باعتباره نائبا فرنسيا في المجلس الوطني الفرنسي، فعبر وبلهجة حادة عن الفرنسيين بمخربي المجتمع الجزائري فقال (إن المجتمع الإسلامي في الجزائر لم يكن غير متمدن ... كان يحتوي على عدد كبير من المؤسسات الدينية، مهمتها البر والإحسان ونشر التعليم في جميع الوطن، وقد استحوذنا على مداخلها، وصرفنا أهدافها وقضينا على الجمعيات الخيرية، وخربنا المدارس، فهدت دعائم العرفان، وشتتنا شمل الزوايا، لقد انطفأت في الجزائر مشاعل العلم، وأهملنا العلماء و الفقهاء المسلمين، فصاروا قوما بورا، وقذفنا بالمسلمين في البؤس والجوع، فأصبحوا ينادون ويلا وثبورا، ثم صرنا بهم الحالة أسوا مما كانوا عليه فسخطوا سخطا كبيرا)[37]

نرى أن "توكفيل" يشهد بأن المجتمع الإسلامي في الجزائر كان مجتمعا متمدنا، وليس كما يراه البعض متخلفا، كما ذكر أنه يحتوي على مؤسسات دينية، بمعنى أن الجزائريين كان لهم دينهم، وشعائرهم، ومؤسساتهم الخاصة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بهم، ولم يرثوا شيء عن المسيحية كما ذكر البعض.

شخّص"نوكفيل"سبب تشرد المسلمين الجزائريين،ومعاناتهم، وسخطهم، بأنه يعود إلى استحواذ الفرنسيين على مصادر أموالهم، واستغلالها لمصالحهم، وهذا ما أفرزته سياسة فرنسا البائسة تجاه الإسلام والمسلمين.[38] انتُدب عضوا في لجنة ابتعثها البرلمان الفرنسي عام1847للتحقيق في شؤون الجزائر، وخلص في تقريره بالقول : (لقد وضعنا أيدينا على مداخيل الأوقاف، وأهملنا المدارس، فرقنا الطلبة، وشيوخ الزوايا، لقد اطفأنا الأنوار حولنا... بعبارة أخرى، لقد جعلنا المجتمع المسلم أكثر جهلا وأمية مما كان عليه).[39]

نستخلص من خلال هذا التقرير، أن فرنسا لتضعف من قوة وعزيمة الجزائريين وتقضي على مرجعيتهم الدينية، قامت بضرب الأوقاف، وشيوخ الزوايا، لأنهم مرجعية المجتمع، ومصدر ثقته، وهذا ما كانت فرنسا متخوفة منه لذلك عملت على محاربته و القضاء عليه.

يرى المؤرخ "مارسيل ايميري" أن الطرق الصوفية برغم صبغتها الصوفية، فإنها كانت تؤدي دورا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا،بالإضافة إلى نظامها الغامض التصاعدي الذي جعلها جمعيات سرية من الدرجة الأولى، فقد نظمت حملات دعائية سرية محكمة ضد الفرنسيين، بواسطة اتصالات خفية، ويذكر أن معظم الثورات التي وقعت خلال القرن 19،كانت قد نُظمت ونفذت بوصايا هذه الطرق الصوفية، ومن الطرق التي لعبت دورا أساسيا في هذه الثورات نجد الطريقة الرحمانية، والطريقة السنوسية، والدرقاوية، والطيبية.[40]

يرى "لوشاتلييه" أن فرنسا اصطنعت إسلاما خاصا، له رجالا من نوع خاص، وكل هذا الاصطناع جاء في طريق اضطهاد المؤسسات الإسلامية، فيقول أن فرنسا قد دخلت الجزائر خلال ثمانين سنة، قد اصطنعت إسلاما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بدون أوقاف، وبمساجد إدارية، وأهل دين ورعين و قضاة موظفين وحج برخصة... لا يمكن الرجوع إلى الوراء لكي" نؤسلم" الجزائر من جديد لأن الإساءة قد وقعت.[41]

شرعت الإدارة الاستعمارية وبمساعدة جيش المستشرقين و القوات العسكرية، منذ الأيام الأولى لسنة 1830 لانتصابها على ارض الجزائر في تحطيم وتدمير البناء العقائدي الفكري للمجتمع الجزائري، المتمثل في الدين الإسلامي، واللغة العربية، والسعي من وراء ذلك إلى خلق فئات اجتماعية منسلخة من عاداتها، وتقاليدها، وللقيام بكل هذا استعانت بالعسكريين الذين كانوا على صلة مباشرة بالجزائريين، ففي بداية الاحتلال ظهر كُتاب عسكريون أمثال بليسي "Pellissier"[42]، "وهونوتو" وغيرهم، والتي كونتهم وزارة الحربية لاكتشاف الجزائر، ومعرفة أحوال أهلها، فقاموا بدراسات ومذكرات عن القبائل وزعماءها،والطرق الصوفية، والآثار والتواريخ المحلية، واللهجات، والشخصيات السياسية التي لعبت دور في تاريخ الجزائر.[43]

إضافة إلى هذه الدراسات، قام العسكريون- أمثال كلوزيل"Clauzél"، بيليسي،ودوقيدون، وبيجار وماسو وغيرهم- بجرائم في حق الأفراد والجماعات شملت الاعتداءات على السيادة، والاستيلاء على خزائن الدولة، وعلى املاك الجيش من ثكنات وقلع وأسلحة وسفن حربية، بالإضافة إلى اعتدائهم على المقدسات والمقومات والأخلاق، بهدم المساجد والمؤسسات الدينية وتحويلها إلى أغراض دينية غير أسلامية، أو إلى مصالح عسكرية وتجارية، كما استولوا على الأوقاف الاسلامية التى كانت مصدر لنشر العلم وإعالة الفقراء، كما فرضوا سياسة التجهيل، وعاملوا الجزائريين معاملة غير انسانية بناء على الدراسات الاستشراقية الانثروبولوجية، التي وصفت طبيعة التكافل الاجتماعي في الاسلام، الذي كان يعيش وقفه المجتمع الجزائري، وحقق له ترابطا وتماسكا نابعا من التعاون و التآزر.[44]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

انصبت اهتمامات المستشرقين بصفة ملفتة اتجهت إلى احصاء الملكيات، ولهذا صدر يوم 8 سبتمبر 1830 قرارا متعلقا بالاستيلاء على أوقاف مكة والمدينة التي يشرف عليها وكلاء من الجزائر، وحجز أملاك العثمانيين، كما أعطى هذا الحق للسلطات العسكرية للاستحواذ على هذه ملكيات الأوقاف في سائر جهات البلاد، لكن كلوزيل تراجع عن هذا القرار، وقدر بعض القادة العسكريين خطورة بقاء الأوقاف بأيدي أصحابها فهي سوف تثريهم وتساعدهم على القيام بالثورة ضد الاحتلال، مع العلم أن معظم الثورات التي كانت ضد المحتل في بداية الاحتلال، هي من تحريك الجمعيات (الطرق) الدينية المختلفة، ولكن بعد ثلاثة أشهر من إصدار القرار أصدر كلوزيل قراراً آخراً يوم7ديسمبر1830مدفوعا بنصائح السيدين فوجرو وفونلاند، استهدف به هذه المرة، ضم كل الأملاك الدينية (وهي تشمل أوقاف مكة والمدينة والمساجد والزوايا) إلى مصلحة أملاك الدولة. يذكر هابار-تعليقا على هذا القرار- أن هذا القرار كان ضربة للدين والثقافة الاسلامية، لانعكاس آثاره على الحياة الدينية والاجتماعية للسكان.[45]

كانت هذه المؤسسات الدينية المصدر الأساسي والوحيد لرعاية الخدمات الثقافية والدينية في المناطق الحضرية والريفية، وكانت هي مصدر التعليم، وإعالة الفقراء والمتشردين.[46]

اذا كانت السلطات الفرنسية الحاكمة قد هيأت المجتمع الفرنسي لتقبل حملتها لاحتلال الجزائر، فإن المستشرقين المندسين، والدارسين للجانب العرقي، اتقنوا دورهم لتهيئة الظروف للقوات الفرنسية للدخول إلى الجزائر دون مقاومة تذكر. طبع الفرنسيين بيانا سريا، ووزعوه بواسطة عملائهم وجواسيسهم، بهدف إضعاف معنويات الشعب الجزائري، ودفعه إلى التخلي عن مساندة حكومة، "الداي" وضمان حياد تونس والمغرب الأقصى، وبلاد قسنطينة، عندما تبدأ الحملة على الجزائر[47]، ومما ورد فيه، أن فرنسا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جاءت لطرد الأتراك، وي=تدعوهم إلى تجنب الاشتباك مع الجيش الفرنسي، وأنها ستعيدهم إلى حكم بلادهم[48]. نجحت فرنسا من خلال ذلك البيان، في التأثير على موقف الشعب الجزائري، وخاصة فئة الحضر، والدليل على ذلك أعيان مدينة الجزائر الذين قبلوا التفاوض مع فرنسا[49].

ظهر ذلك جليا بعد النزول في ميناء سيدي فرج، الذي لم يواجه فيه الفرنسيين صعوبة في الإنزال، وكأنها خالية من السكان، وفي ذلك يقول العقيد فرنال[50]: "...لا شيء على هذا الشاطئ ينذر بالخطر، لا تحضيرات خارقة للدفاع، ولا حركة، لما اقتربنا من شبه جزيرة سيدي فرج أبصرنا القلعة الصغيرة التي تعلوها وكنا نتوقع أن تحيي قدوما بضع طلقات مدفعية، ولكن نفس الصمت كان يخيم هناك[51]".

رغم من أن الداي حسين كان يعلم بقدوم حملة فرنسية على الجزائر، ولم يكن قلقا على نفسه ولا على مدينته الرئيسية، وهو ما أكده أحمد باي، بقوله:"... كان الداي حسين قد أخبرني بمشاريعهم(يقصد مشاريع الفرنسيين) في رسالة ..."[52] الفرنسيون أنفسهم على الرغم من السر والكتمان، إلا أنهم كانوا يظنون أنهم سيتعرضون إلى مقاومة من قبل السكان، فيقول فرنال: "... لكن لا شيء هناك يدل على أن العدو كان يتوقع إمكانية الهجوم من البحر، وكانت دهشتنا كبيرة أمام هاته اللامبالاة، بالنسبة لنقطة من سواحلهم تشير إليها منذ أشهر عديدة كافة الصحف العمومية لجميع البلدان بأنها ستعرف هجوما سيتم خلالها نزول الجيوش..."[53]

يبقى هذا السؤال دائما يطرح نفسه، لماذا لم يهتم الداي بهذه الحملة على الرغم من معرفته بها؟ الذي واجه الحملة ما هو إلا جيش غير منظم وذو أسلحة قديمة، وأما القائد ابراهيم أغا ليس ذو خبرة، بالإضافة إلى أنه لم يستفد من خبرات ونصائح قادة الجيش، ولاسيما الباي أحمد حاكم قسنطينة، الذي نصحه بألا يعطي فرصة للجيش الفرنسي بالنزول، وأن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يحطمه قبل ذلك، إلا أنه عمل عكس النصيحة، بل راح يخبر الجيش أن الله يساعد من يقاتل الكفار، فهو يساعدهم، ولذلك ينتظر إلى أن يقوم الجيش بالنزول[54]، وعسكر في سطاوالي على بعد 05 كيلومترات. وبعد الاصطدام لم يجد الداي أي تجاوب من العامة الجزائرية بجانبه، ولاسيما طبقة الحضر المتخوفة على ممتلكاتها[55].

نخلص من هذا إلى أن فرنسا خططت لاحتلال الجزائر بشتى الوسائل المتاحة، ولم تترك المجال للحظ وهذا لتتمكن من ان تحتل الجزائر، وتثبت أقدامها فيها، ز من أجل ذلك وظفت كل ما تملك÷ الوسائل، وجندت لذلك كل من له ما يقدمه، لتحقيق غايتها بفعالية، ولعل ما قدمه مستشرقوها لافت للانتباه، وظاهر للعيان، فهم منذ بداية القرن التاسع عشر توجهوا إلى الجزائر، لدراسة مجتمعها و الإثنيات التي يتكون منها، ومقومات هويته، فعرفوا ما يجب أن تضعه فرنسا في حسبانها، عندما يحين الوقت للغارة على الجزائرن، وهو ما مكنها فعلا من تحقيق ما أرادت، ولم تتوقف جهود المستشرقين عند هذا الحد، بل واصلوا دورهم الريادي في شتى المجالات، من أجل صناعة المجتمع الجديد الذي تريده فرنسا، بهوية جديدة، ومقومات مختلفة عن مقوماته، لا تمت بصلة لا إلى دينه، ولا إلى لغته، ولا عرقه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش:

(1)- الاستشراق: الكلمة في مدلولها اللغوي جاءت من الفعل " شَرَقَ" يُقال:" شَرَقَتْ الشمس شرقا وشروقا: طلعت" أنظر (اليعقوبي: القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، مج1، ص 856)، وإسم الموضع"المشرق"، وكان القياس المشرق، والتشريق: الأخذ من ناحية الشرق، وشرقوا: ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق. (إبن منظور: لسان العرب، تصنيف: يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، مج2، ص 303)، وإستشرق: طلب علوم الشرق ولغاتهم.(أحمد سمايلوقتش: فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، إهداءات ..... 2001، ص22)، والمستشرق هو عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه.(أحمد عبد الرحيم السايح: الإستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ص 10).

(2) - الطيب بن إبراهيم، الاستشراق الفرنسي و تعدد مهامه(خاصة في الجزائر).منشورات المجلس الاسلامي الأعلى.الجزائر, 2010..ص 52.

(3)- عبد الله محمد الأمين النعيم، الإستشراق في السيرة النبوية، دراسة تاريخية لأراء (وات- بروكلمان- فلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية21،1997،ص16.

(4) -Stéphane Gsell : Histoire Et Historiens de L'Algérie , Librairie Félix Alcan ,Paris , M .CM .XXXI . p 18 ,19

(5)- عميراوي حميدة. محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى ،عين مليلة،الجزائر ، 2004،ص11.

(6)- ميسوم بلقاسم، من جرائم الاستعمار الفرنسي، تزييف تاريخ الجزائر، كتاب : Histoire et historien de L Algérie أنموذجا، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2011، ص1، مقال غير منشور.

(7)محمد عبد الله الشرقاوي،الاستشراق والغارة على الفكر الإسلامي،دار الهداية ،القاهرة، د.س،ص 20.

(8)- أبو القاسم سعد الله،أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،دار البصائر ،الجزائر، ط خ، 2007، ج2، ص 14.

(9) - إبراهيم لونيسي، بحوث في التاريخ الاجتماعي و الثقافي للجزائر ابان الاحتلال الفرنسي، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 166.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(10) - فانتوري دي برادي(V. De paradis): جون ميشال ولد بمرسيليا 1742 كان ابن قنصل سابق في القرم، دخل الى مدرسة الشباب للغات فتعلم العربية و التركية، اصبح ملحق بقنصلية فرنسا بإسطنبول ثم انتقل الى تونس 1779 و بقي فيها 5 سنوات ثم تم استدعاءه ليتولى منصب سكرتير مترجم للغات الشرقية فارسل الى الجزائر لتجديد المعاهدات الفرنسية الجزائرية، رافق نابليون فيه في حملته على مصر، كمترجم لهيئة اركان الجيش، انظر كتاب:

Charles Féraud , les interprètes de l'arme d'Afrique, Alger . A jourdan, libraire- editeur, 4 place Du gouvernement 4, 1876. PP. 22,23,24.

(11) - أبو القاسم سعد الله، ابحاث و اراء ، ج2، ص 14.

(12) - إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 167.

(13) - أبو القاسم سعد الله، ابحاث و اراء ، ج2، ص 167.

(14) - عصام سخنيني، المستشرقون ومصطلحات التاريخ الإسلامي تحليل ونقد، دار جرير للنشر، ط1، 2007، ص 21.

(15) - المرجع نفسه، ص 21.

(16) - دي ساسي De sacy: (1758-1838)، شجع على انشاء كرسي العربية في الجزائر وهو الكرسي الذي تولاه عدد من تلاميذه على راسهم برنييه brenier ويعتبرونه منشئ علم الاستشراق باوربا ومن مؤلفاته قاموس عربي-فرنسي،انظر كتاب: سعد الله، ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر،دار الغرب الاسلامي،بيروت،ط 1،1996،ج 4،ص 22.

(17) - أبو القاسم سعد الله ، ابحاث وأراء ،المرجع السابق ،ج2، ص23.

(18) - المرجع نفسه، ج2، ص 23.

(19) - المرجع نفسه، ج 2، ص .24،25.

(20) -Féraud, Ibid . p p. 76.68

(21) - جون شارل زكار: ولد في 19 جانفي 1789 عاش في لبنان التجأ بعد ذلك إلى مارساي ثم عمل في الكنيسة في 1830، توفي في 22 فيفري 1852. انظر الكتاب: Ibid. p p. 182,183

(22) -Féraud , Ibid,pp.182.183

(23) -Ibid,P. 183

(24) -Ibid, PP. 183.184

(25)- Feraud,op.cit. PP. 190,191.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(26) - هنري ريمزا: ولد في 28 مارس 1798 من عائلة فرنسية دخل مبكرا في القنصلية الفرنسية في سوريا في 1830 أثناء قضية بعثات المترجمين إلى الجزائر كان هنري يريد التطوع إلى هذه البعثة هنري أولى برغبته الملحة بمساعدة و خدمة الدولة الفرنسية و اثبت ذلك لخدمة مدينة طولون و في 10 ماي قبل من طرف الجيش ليكون احد المترجمين لهم و بالتالي ساهم في الحملة، انظر الكتاب: Ibid,P.191.

(27) - Féraud ,Ibid, PP 191, 192

(28) -Ibid. P.193

(29) -Feraud,op.cit. P, 207

(30) - Féraud ,Ibid , P.207.

(31) - - أحمد عبد الرحيم السايح الإستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي ،الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1996. ص، 34.

(32) - إبراهيم لونيسي: المرجع السابق، ص 183.

(33) - المرجع نفسه، ص 183.

(34) بد القهار عبد الغاني :الاستشراق والدراسات الاسلامية،دار الفرقان للنشر، 2001،ص 30.

(35) - احمد عبد الرحيم السايح، المرجع السابق، ص 36.

(36) - ولد في فرنسا 1805 من عائلة أرستقراطية بعد إنهائه دراسته الأولية انصرف إلى دراسة القانون عين قاضيا متدربا في محكمة فرساي في عام1827عين وزير للخارجية،وبقي في هذا المنصب عدة أشهر حتى أقال نابليون الوزارة وضع الكسي دي توكفيل قبل وفاته1859كتابه الديمقراطية في أمريكا الذي اعتبره من أهم مؤلفات القرن التاسع عشر.(oqueville Alexis, œuvresomplet.TIIParis1962, P.323)

(37) - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة التعاونية، ط1، د. س، ص ص 27،28 .

(38) -Toquville, OP.cit, P .324.

(39) -Ibid. P.324.

(40) - محمد السيد الجنيد، الاستشراق و التبشير، قراءة تاريخية،دار فياء للطباعة،د.س، ص 37، 38.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(41) ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،دار الغرب الإسلامي بيروت،1998، ص344.

(42) - بيليسي رينود:Pellissier Rynaud تولى ادارة المكتب العربي 1834 وتعيينه راجع لقدراته على اللغة العربية ومعرفته سلوكيات السكان، و كان من أهم المترجمين له عدة مؤلفات مهمة في التأريخ لفترة الاحتلال من بينها حوليات جزائرية. أنظر كتاب :
Arsime Berteuil, l'algerie francaise, paris deutu librairie editeur palais- royal 15 galerie vitree 1856. P 268

(43) - أبو القاسم سعد الله :أبحاث وآراء ،ج4، ص20،21

(44) - المرجع نفسه، ص 20،21 .

(45) خديجة بقطاش،الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر1830،1871،دحلب، ص23.

(46) - المرجع نفسه ، ص 24 .

(47)عميراوي احميدة، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث،دار الهدى عين مليلة،ص99.

(48) - عمار عمورة، الجزائر بوابة التاريخ ماقبل التاريخ الى1962 الجزائر خاصة،دار المعارف،الجزائر،2006،ج2، ص263.

(49) - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية1830-1900، دار الغرب الاسلامي:بيروت، لبنان، ج1، ص25.

(50) - فرنال: قائد كتيبة تابع لقيادة الأركان. (فرنال، حملة إفريقيا 1830، دون مترجم، دار الرائد للكتاب، الجزائر،2014، ص1.)

(51) - فرنال، المرجع نفسه، ص32.

(52) أحمد باي،مذكرات أحمد باي،الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر، 1981، ص11.

(53) - فرنال: مصدر سابق، ص34.

(54) - عمار عمورة: مرجع سابق، ص264-265.

(55) - ناصر الدين سعيدوني، رائد الدراسات العثمانية في الجزائر، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية و التاريخية- جامعة معسكر، 2014، ص153.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com